

## الأدب في خدمة المجتمع

محاضرة معالي فؤاد سراج الدين باشا

وزير الشؤون الاجتماعية

بكلية الآداب

حضرة الأستاذ الدكتور العميد

حضرات الأساتذة الأجلاء

سيداتى . سادتى

كرمتونى بموقفى بينكم وأنتم أرباب الأدب وأقطابه ، وحماة البيان ورعائه ، ثم  
كرمتونى بما تفضل به الأستاذ العميد من ثناء دل على سخائه وحنانهم ، والأدباء منذ  
خلقوا ، معروفون بسعة البدل وفرط السخاء .

وإنى وأنا بين المناطقة والفصحاء ، لأرغب عن المقابلة والمبادلة ، بل أوتر الفرار  
من المساجلة والمنازلة ، وأقنع بالاعتراف بحيلهم ، وأقبل مغتبطاً أن أكون مديناً بفضلهم  
وهم بحمد الله دائتون سماح ، لا يستعجلون حقهم ، ولا يخرجون مدينهم .

### وحى الجامعة

والآن تراءى أمامى صور الماضى الجامعى الجميل ، فأذكر الشباب فى ازدهاره ،  
والذهن فى تفتحه ، وأذكر الزملاء والأساتذة ، والكتب والمحاضرات ، والحضور  
والغياب ، والاستذكار والامتحان ، والخوف والرجاء ، أذكر ذلك كله فيعاودنى الحنين  
الى مسافات ، وألمس من وقتى هذه رجعة الى الأمس المحبوب ، فانا اليوم مستذكر  
قبل أن أكون محاضرا .

والواقع سيداتى وسادتى ، أنه ما أتميت لى فرصة لقاء إخوانى الجامعيين ، إلا عدت  
نفسى فى السعداء المجددين ، وخالجتى ذلك الشعور الذى يخالج المرء بين أهله وذوى قرباه  
عند ما يأنس بهم بعد طول وحشة ، ويلقاهم بعد طول فراق ، فينهل من مورد دم العذب  
ما يملأ العين والقلب .

وما لقيت الجامعيين إلا وذكرت تلك الأيام الباسمة ، التى كان كل منا يعد فيها  
عدته للجهاد ، ويتزود للقتال بغير زاد ، حتى إذا خرج للمركة ، قويا مدججا ، كان  
حريا أن يفوز وينتصر ، جديرا أن يبلغ الأمانى ويظفر بالأمال .

وما ذكرت هذه الأيام ، إلا شعرت بالفخر والعزة ، وتضاعف اعتدادى بنفسى  
واعتزازى بماضى ، وثقتى بمستقبل ومستقبل العلم والمتعلمين فى هذه البلاد .

ذلك أن كل نبت سفته الجامعة بماثها نما وأثمر ، وكل شجرة في روضها المنخصب أمست  
نايبة الأصول ، سامية الفروع ، دانية التطوف ، وإن كل منتم إلى جامعة العدم ، منتم  
إلى أكرم الأرومات ، وأشرف الأسر ، بل مدفوع بطبعه إلى أشرف الغايات .  
أجل - أيها الأخوة - إننى سعيد اليوم بلقائكم ، فخور بانتسابى إليكم ، شاكر  
عميدكم الكريم ، أن أتاح لي فرصة الاجتماع وإياكم ، مشترك معكم بقلبي في الأمانى الجميلة  
التي تراءى في الأفق لكم ، حقق الله لكم ول مصر ما يتفنيه جميعا من الأمانى والآمال .  
سيدانى وسادتى :

اختر لي عميدكم عنوان هذه المحاضرة . لأحدثكم عن ( الأدب في خدمة المجتمع )  
وقد جال بذهنى أنه يريدنى على أن أحدثكم عن ( الأدب في سيادة المجتمع ) .  
فكيف سما الخادم اذن إلى منزلة السيد ؟

بل كيف يسوغ لى ، أن أزعم للعلماء والمعلمين في هذا الحفل ، أن الوضع بهد  
ذلك هو حو لم يتغير ، وأن موضوع المحاضرة لم يتبدل ، وأن المعنى الذى نشده في كلا  
اللفظين لم يتحول ، مع الفوارق المعلومة بين الخادم والسيد .

### تعريف

اسمحو لى أولاً ، وقبل البت في هذه القضية ، أن أحلل الشخصية المعنوية لهذا الخادم  
السيد ، لفظاً ومعنى ، توطئة للتبويه بخدماته ، خادماً أو سيداً ، والإفادة بما قدمه ويقدمه  
لليجتمع من أسباب النهوض وعوامل التقدم .

يقولون إن كلمة ( الأدب ) من الألفاظ العربية القليلة التي زكتهما النباهة ، ورفعها إلى  
قمة المجد والخلود صيتها البعيد ، وقد اختلف اللغويون في صحة نسبها ، فقال بعضهم إنها  
يونانية استضافتها العربية ، ثم تبنتها فأصبحت منها ، وقال آخرون إنها أخذت عن قبائل  
الشومريين الذين كانوا يقطنون جنوب العراق في فجر التاريخ ، وكان معناها عندهم ( الإنسان )  
ثم تطورت على الدلالة على ما يمتاز به الإنسان من الصفات المثلى ، والخلال الرفيعة ، وقال  
فريق ثالث إنها عربية أصيلة ، فالأدب بمعنى الدعاء ، لأنه يادب إلى الفضائل وينتهى  
عن القبائح

على أن الخلاف لا يقف عند صحة نسب الكلمة ، بل إنه يتعداه إلى مدلولها ومعناها :  
فقد استعمالها شعراء الجاهلية بمعنى السلوك الحسن والعادة المحمودة ، ثم استعمالها بعد  
ذلك بمعنى الموروث أو المكتسب من الشائيل الطيبة والأخلاق الكريمة ، وأخيراً استعمالها  
بمعنى التهذيب على المأثور من المحامد والتقاليد .

أما أدباء الإسلام ، فهم قائلون إن الأدب هو الدأب أى العادة ، وقائلون إن الأدب  
هو التعليم ، وحجتهم في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام " أدبى ربي فأحسن تأديبى " وكان

النبي يرد بهذا الحديث على الامام علي بن أبي طالب ، وهو يعجب إذ سمعه يحدث وفود العرب بالم يفهم على أكثره ، وقائل إن الأدب هو الفعل الذي يتربى به المرء في الناس وقائل لأنه المنهج الذي يجب على الإنسان أن يسلكه في تفهم علم من العلوم أو القيام بأى تصرف من التصرفات ، فيقال آداب البحث والمناظرة ، وآداب السلوك ، وآداب المائدة ، ونحو ذلك — وقائل هو الأناقة في المطعم والملبس ، واللباقة في الحديث والسمر والمناذمة وقائل إن الأدب علم يراد به الاحتراز من الخطأ في كلام العرب ، نطقا وكتابة . وقائل إن الأدب هو كل علم غير العلوم الدينية — فالطب والهندسة والكيمياء أدب ، والشعر والنثر والموسيقى والغناء أدب ، وأيام الناس وتخطيط البلدان وعلم النجوم أدب ، لأنها جميعا ليست من علوم الدين .

فاما المحدثون فقد عرفوا الأدب بما ينطبق على روح العصر ، فقالوا إنه التعبير عن خواطر الأفتدة وسوانح الأفكار ، بأسلوب شجيب إلى النفس ، مع الإلمام بالقواعد التي تمين على ذلك ، فكل الناس أدباء ، أو ينبغي أن يكونوا أدباء ، لأنهم جميعا مضطرون إلى التعبير عن خواطرهم ، والافتصاح عن رغباتهم ، وإنما يتميز العاقرة عن غيرهم ، بالإجادة والدقة والافتنان .

صيداتي ، سادتي

هذا عرض سريع ، لقليل من كثير ، من التعاريف التي أراد بعض اللغويين والأدباء في عصور مختلفة أن يحددوا بها معنى الأدب .

وها أتم ترون أن مدلول الكلمة يتغير ويتطور مع الزمن ، فهو كالحياة نفسها ، لا يستقر على حال ، ولا يتقيد بحدود .

على أنكم لو أجزتم لي أن أفاضل بين مختلف هذه التعاريف والآراء ، لقلت ( إن الأدب هو مجموعة المثل العليا للشعب ، وسجل العادات والتقاليد وأمايب الحياة والأمانى التي يتميز بها هذا الشعب عن سواه ) .

ولا شك أن هذا التعريف ، لا يراد به التحديد القاطع لمعنى الكلمة ، لأنها كما قلت — تتطور مع الزمن ، وتتغير مع الحياة ، ولكنه — فقط — تعريف يلخص غيره من التعاريف ويجعل آراء القدامى والمحدثين الذين حاولوا أن يرموا لهذه الكلمة حدودا ، وأن يضربوا حولها نطاقا لا تتعداه .

ومهما يكن من شيء ، فإنه لو صح تعريفنا للأدب ، لكان ماظننت يقينا ، وما جال بخاطري أنه الخطأ صوابا ، من أن عميدكم الكريم ، إنما يريدني على أن أتحدث إليكم عن ( الأدب في سيادة المجتمع ) وليس في خدمته ، لأن الأدباء هم الذين يوجهون المجتمع إلى مثله العليا ، ويرشدونه إليها بما يملكون من مواهب ، وبما في أيديهم من جاه وسلطان ومقدرة ، ولأنهم أيضا ، حفظة لسجل العادات والتقاليد والأمانى للشعب ، فهم لا يتركون شيئا من آثار العمر إلا سجلوه ، ولا يغادرون من أحواله كبيرا ولا صغيرا إلا دونوه .

وهكذا ترون أن الأدب هو سيد المجتمع وليس خادمه ، اللهم إلا أن يكون الأدب خادما لأنه السيد ، أو سيدا لأنه الخادم ، وسيد القوم خادهم كما يقولون .

### سيداتى وسادق

على سوء هذا التعريف المختار للأدب ، وهو تعريف غير مبتكر ، نستطيع أن نقول إن الحضارة الانسانية بجميع أصولها وفروعها ومتومات حياتها ، مدينة بوجودها للأدب ، لأنه كان المرآة الأبدية التي انعكست عليها صور التراث العلمى للذنيات الخالية ، والكنز الذى تحدثت فيه آثار الفكر وثروة اللغات فى العصور الماضية .

وهل كانت هناك وسيلة أخرى - غير قلم الأديب وقرطاسه - بنجع شتات هذه الأجمد العلمية ، وتلك المتوحات الفكرية . وتسجيل هذا الاثبات الوجدانى الذى تهبأ للانسان منذ فجر التاريخ الى اليوم .

وهل كانت ذلك سائل ثانية - غير سبيل الأدب - تسلكها الأجيال المتعاقبة فى جهادها الطويل العريق لبناء صرح الحضارة ، مقتفية آثار الخطى الأولى للعارف الانسانية ، حلقة حلقة ، حتى أوفت على العاية ، أو أصبحت قريبة منها .

وهل كان فى مقدور أعيننا وعقوانا - لولا الأدب - أن ترى وتعى ، مشهد بحر العلم ، ينبثق منه هذا الوادى فيضى الوجود ، وينسج خيوط الحضارة البشرية ، ويمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فيدد ظلمات الكون الأعمى ، ويأخذ بيد الغارقين فى فيافي الجهالة . ويؤلف من هذا النور المشرق - قبل ميلاد التاريخ - معالم الحضارة المصرية القديمة ، التى هى أم الحضارات ، ومطلع شمس المذنيات .

وإذا كان المجتمع حلقة صغيرة فى سلسلة هذا الكون العظيم ، وكانت هذه الحلقة متصلة بما قبلها ، مرتبطة بما بعدها ، فقد تولى الأدب وصل هذه الحلقات بعضها ببعض ، بما أورث الأبناء من علوم الآباء وفنون الأجداد ، وبما هياه للناس من أقباس النور يستضيئون بها فى سيرهم المطرد الطويل .

### حضرات السادة :

على هذا القياس يكون الأدب هو أسلوب التعبير عن عواطف النفس وخوارج الحس وخواطر الفؤاد - وهو تصوير أحاسيس الانسان وترديد شعوره وترجمة آلامه أو هو التفريد بمثله العليا والحناف بأغانيه والسندو بأحلامه . أو ذلكم كله ، فيكون هو اللسان المعبر ، والترجمان الصادق ، والمرآة الصافية المجلوة ، لما فى المجتمع من فضيلة وردذيلة ، وكمال ونقص وتوثب ونحود ، وتقدم وبحود ، ويكون بهذا هو النور الذى يشع ويضى ، فيكشف جوانب المجتمع ، ويبدد ظلمتها ، ويزيل كربتها ، ويبدل ضعفها قوة وجودها تقدما ونحودها توثبا ، بما يسوق ويرسل من قول مشرق ، وبيان موفق ، ولفظ جزل ، وخيال بارع ، وأسلوب ساحر ، يستولى على النفوس ويأخذ بمجامع القلوب .

وليس من شك في أن من يتصفح أدوار التاريخ ، ويتمتع في أطوار الحياة ، ليرى أن المجتمع في كل زمان ومكان لم يشعر بالعظمة والسمو الا حين تألق فيه الأدب وأشرق واحتل منه اسمى وأعز مكان . اجلى ، فما عرف التاريخ مجتمعا تنقل من ضعف إلى قوة ومن ذل إلى عزة ، ومن حياة ضيقة فاترة الى أخرى نيرة باهرة ، إلا كان الأدب عماد ذلك وظهيره — بل دليله ونصيره — وما عشق الناس الفضيلة ونفروا من الرذيلة ، ولا سعوا إلى المجد وأبوا الذل ، إلا بقوة الأدب وروعته . ان مثل الفضيلة أو المجد تعلقت بهما النفوس وهفت لها القلوب ، وطارت حولها الأفتدة ، وان حكى عن الرذيلة أو الذل ، اقمشرت لها الجلود ، وارتعدت الفرائص ، وتصدعت جوانب الانسان .

بل إن مجتمعا لا يشرق فيه الأدب ، ولا يلمح ، لهو مجتمع مائل البنيان متداعى الأركان لا يستقيم له أمر ولا يستقر له حال .

نعم . هو مجتمع خامل جامد لا أمل له في تقدم ولا نهوض .

أيها السادة :

لقد تدفقت أحاسيمي وتصويري للأدب وعظمته ! متراحمة متناكبة ، فكان أن تدفقت كلمات مثورة ليس لها غير حقها رباط ؛ وليس لها سوى صدقها قوة .

ما هو هذا المجتمع الذى يخدمه الأدب ؟ !

المجتمع لفظ قصير المبني غزير المعنى . . .

إن ذكرناه ذكرنا آمالنا له . . . نجاهد لها . . . ونعنى في سبيلها . . .

وإن ذكرناه ذكرنا العدل يسوده . . . والحنان يغشاه . . . والاخاء يعمه . . . والتساند يشده . . . وذكرا الجمال والكمال ، والرقى والتقدم ، والسعادة والهناء . كل هذه تظله وترعاه .

ومن لكل هذه سوى الأديب في روعة جهاده وشدة كفاحه وقوة نضاله وعظمة نزاله ؟

وإلا فهل وجدتم غضبية على ظلم وجور ، أو ثروة على تعسف أو استعباد — سياييا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا — إلا كان الأدب بأشعته الواجحة هو موقدها ومأهبها ، حتى يدك من الظلم والجور . . . وينهار بنيان العسف والاستعباد ؟

وحل وجدتم قومة لمعنى جميل وغرض نبيل . . . أو دفعة نحو تقليد كريم ومذهب جديد ؛ إلا كان الأدب بنفثاته الأخاذة هو القوة السحرية التى تدفع النفوس إليه ، مستعذبة كل بذل ، مستمرنة كل عطاء ؟ .

ليت شعري ، إن الأمثلة على كل ما ذكرت ، لأكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى . . .

## الأدب والدين

وإذا كان الدين هو دستور الأخلاق والفضائل ، ومنظم الصلوات بين الانسان وأخيه ، وبين الانسان وخالقه ، واليدوع الذى نجد فيه دائما العزاء لأرواحنا والإلهام لنفوسنا والطمأنينة لقلوبنا - إنا كان ذلك هو شأن الدين فينا ، ومكانته منا ، أفلا ترون أنه استعان بالأدب ليؤدى رسالته ، ويصيب أهدافه ، ويحقق الأغراض التى نزل من أجلها ؟ وهل الرسائل السماوية التى أوحى بها إلى موسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - إلا نماذج رفيعة من الأدب الإلهي ، أعجزت الناس لفظا ومعنى ، ولكنها ملكت سبيلها إلى أفتها منهم ، وبافت صرماها من نفوسهم ، لأنها صيغت بأسلوب الأدب ، وتحدثت إليهم بلغة الأدب ؟

وإذا كنا نحن معاشر المسلمين - وليس عندنا أقدس ولا أعز من ديننا - نفخر بترائنا الإسلامى الضخم ، ونشعر شعورا صحيحا ، بأننا جميعا - فى مشارق الأرض ومغاربها أعضاء أسرة واحدة ، فما ذلك إلا بفضل الأدب العربى الذى توقفت على حياته حياتنا ، واتصلت به روابطنا ، وعاشت بفضلها لغتنا ، وتقاربت به الأرواح وإن تئات الأقسام ! ترى هل يسعنى ويسع المقام . . أن أرجع بكم خطوات إلى التوراة والانجيل ثم إلى الياذة هومروس وما فعلت جميعها يوم ظهرت فى النفوس ، وأن أقدم بكم خطوات أخرى إلى القرآن الكريم وسمو أدبه وأثر يسانه ، حتى جعل من أولئك البدو سادة للدينا أعزة فيها . . فجعلوا من مجتمعهم البدوى المتفر . . مجتمعا يفيض حضارة زاهرة باهرة . . ما أحوج عالم اليوم أن يرجع إليها ليجد فيها ربه وغذاءه وهديه وعلاجه .

ألم يرسم القرآن الكريم للمجتمع أصلح دستور وأعدل قانون ولم يترك شأنا إلا عاجله حتى جعل كتاب الفرنج ومصالحوهم يقتبسون من آياته وياخذون بأحكامه وعظاته ، ويتأدبون بأدابه بل إن بعض الرسامين والفنانين قد استهلوا فنه من بعض آياته - إن كتابنا الحيد هو الأدب الأكبر - ولقد أضفت بلاغة القرآن على البيان العربى كله ثوبا جديدا قشيبا ، وأخذ الشعراء والكتاب يلتمسون لمنظومهم ومشورهم حلية زاهرة من آداب القرآن . فأسعدهم حظا وأرفعهم فنا من يقتبس من آياته فيحسن الاقتباس ، أما ما أشاع القرآن فى المجتمع البشرى من آداب ، فأجل من أن يحصر ، وكفى من تأديبه وتهذيبه للمجتمع أن صان البنات من الواد ، وحرم الجمع بين الأخنين ، وحظر الزنا والميسر والخمر ونظم الزواج والطلاق والمعاملات والإرث ، ووضع للحرب قواعد وآدابا لو اتبعت حق اتباعتها خلفت وطأة المذابح البشرية وانتفى كثير مما نرى فى الحروب من قسوة ووحشية .

ثم بعد القرآن الكريم ، خطب النبي العظيم وأحاديثه ، مازالت ترهف الأحاسيس وتعمل في النفوس السحر الحلال . انتصدهم إلى العلا درجات إثر درجات .  
ثم خطب خلفاء المسلمين وقادتهم وشعر شعرائهم . وكتب كتابهم ، مما كان يوقظ عواطف السخاء والبذل في النفوس ، حتى تجود بما تملك راضية طيبة . أو يكفكف عبرات المحزونين ويضمد جراح المنكوبين . فيتلقون الشدائد ، وقلوبهم عامرة مؤمنة ، أو يلهب حماس المجاهدين . . . ويذكي همم المحاربين . . . في سبيل عقيدتهم أو مجدد دولتهم فيبدلون الأرواح راضية مطمئة .

## الأدب كنوع من الثقافة

سيداتي وسادتي

لكل هدف من أهداف الإصلاح ، ولكل ناحية من نواحي خدمة المجتمع ، وسيلة تنتهي إلى غاية ، والأدب في خدمة المجتمع يعتبر إحدى وسائل هذه الخدمة ، وأداة من أدواتها . ولكنه يمتاز في ذات الوقت ، أسوة بسائر العلوم والفنون ، بأن يصلح لأن يكون غاية قانعة بنفسها ، بوصفه لونا من ألوان الثقافة التي تطلب لذاتها ، كما يصلح لأن يكون وسيلة من وسائل الإصلاح بوصفه أحد العوامل التي تؤثر في المجتمع بالتوجيه والتنوير والحث على التقدم .

ونعني بذلك أن الأدب يمتاز عن غيره من القوى العاملة في خدمة المجتمع ، كالمال والمنصب مثلا - فإن رجال الإصلاح ، وقادة الأمم ، ودعاة النهضة ، لا ينشدون المتاعب ولا الأموال باعتبارها غاياتهم من الحياة ، بل يتخذونها وسائل لما يريدون

والأدب بهذا الوضع أو بوصفه غاية من الغايات التي تطلب لذاتها ، يؤدي أعظم الخدمات للمجتمع ، لأنه يهدف الاحساس ، ويسمو بالشعور ، ويرتقي بالمستوى الروحي للأفراد ، ويفتح الأعين على معاني الحب والخير والجمال ، ويضعنا على أعناق الماضي ، وحقائق الحاضر ، وأمل المستقبل ، في صور مذهبة الحواشي ، ساحرة الرسوم ، جميلة المعاني . فالأدب روي قبل أن يكون ألفاظا وإحساس قبل أن يكون تعبيرا .

ونشدان الأدب لذاته ، تكون من ألوان الثقافة ، أدى لمصر ولاقطار العربية والإسلامية رسالة قيمة ، أخذ يبدو من خلالها المستقبل الزاهر ، طاق الوجه ميمون الطلعة لأنه هو الذي أنشأ بين معمر وشقيقاتها وحدة ثقافية تعتر بها ، وهو الذي قام بدور السفارة بيننا وبين هذه الشقيقات فربطها برباط الوحدة الجامعة ، وهو الذي رشح مصر لزعامه العالم العربي ، وهيا لها مكانها في الطليعة .

وبذا تكون دراسة الأدب ، والالتماس به ، والعناية ببحثه وتدقيقه من دلائل رقي الشعب ومن علامات تقدمه ونهوضه .

وإن المرء يستطيع أن يقع على حكم صحيح لحال أمة من الأمم ، إذا راجع آدابها ،  
وراجع نتائجها منه ، ومدى اهتمامها به .

فالآداب في الأمة القوية الناهضة ، مزدهرة فينانة ، حافلة بالحياة والقوة . وفي الأمم  
المتأخرة ، تراها عقياً مجذبة القرائح ، سقيمة الخيال مغافة الأذهان ، وترى الذوق فيها خشناً  
مانعاً متهاكلاً لا روح فيه ولا حياة .

ولانه لمن الحق أن نسجل هنا لأدبنا العربي ، أنه حاناً من العبودية العقلية ، وحفظ  
لنا لغتنا وتقاليدنا ، وأبقى لنا على الصلات القديمة الكريمة التي تربطنا بماضينا ، فقدمت  
على هذا الوادى أحداث كبرى ، وطافت به محن عظمى ، وتمسقت عليه فتوح أعجمية  
متصلة الحلقات ، ففاضل عنها الأدب العربي أيما نضال ، وحسى أرواحنا وألسنتنا وعقولنا  
أن تكون لها صبغة غير الصبغة المصرية ، ومن هنا ظل كياننا قائماً ، وإن كان ضعيفاً ،  
ومن هنا وجدنا السبيل أمامنا لتقوى ونسترد ما فقدنا .

وإذا انتقلنا الى غير بلادنا ، فهل يسع المقام أن نتكلم عن تولستوى وأثر أدبه في روسيا ،  
أو شكسبير وبرنارد شو وأثر بيانهما في إنجلترا ، أو فولستير وجان جان روسو من لعبوا دوراً  
خطيراً في فرنسا ، أو نيتشه وغيره من أدباء ألمانيا ؟! أو تشرشل وبيانه الرائع الذي يتحكم به  
في الروح المعنوية لأكبر امبراطورية في التاريخ ، يفرس في النفوس الصبر عند الشدة ،  
ويحفزها إلى المثابرة على النضال ، ويقوى يقينها بالنصر المبين .  
أعود فأقول ليس هناك منسج من المقال أو المجال لكل ذلك .

فكل هؤلاء قد غيروا بأدبهم مجرى التاريخ في حياة أممهم ، وأدوا به أجل الخدمات لمجتمعهم .

## الأدب والإصلاح الاجتماعي

سيداتي وسادتي

لو أنعمنا النظر قليلاً لوجدنا أن الأدب خير وسائل الإصلاح الاجتماعي وأقربها تأثيراً  
فهو وإن بدا منظوماً أو منثوراً . وإن اتخذ سبيله في الناس كتاباً يقرأ أو خطبة تلي على  
المنابر أو تذاع على أمواج الأثير ، وإن سلك إلى المجتمع سبيل الصحافة أو السينما أو المسرح  
أو الأغاني فإنه — في جميع هذه الحالات — ينهض برسالته ، ويهدف إلى غاية ، وهو —  
في جميع هذه الحالات — يرق بالأذواق ، ويمكن للأخلاق ، وينشئ الأمة الحية ، ويصل  
العواطف بالعواطف والقلوب بالقلوب ، والحاكم بالمحكوم .

ولو أننا ألقينا نظرة عاجلة مرتجلة على خطوات التاريخ ، وهو يتنقل بها ونبدأ  
في طريقه الطويل ، فرأينا أن كل ما تعرضت له الإنسانية قديماً وحديثاً ،  
من عوامل التقدم والتأخر وكل ما ذاع فيها من الآراء والمعتقدات ، وكل ما ترتب على  
هذه الآراء والمعتقدات من اتجاهات فكرية وانقلابات اجتماعية وسياسية ، إنما كان  
مقروناً بالأدب ، ناشئاً عنه .

وإنكم تعرفون ذلك وتقرأونه ، فلا مجال للتفصيل والتطويل ، كما أنكم تعرفون وتقرأون أن الأدب هو الذى قرر حقوق الانسان . وأنه هو السلاح الذى انتصر على الظلم والظفران ، فالأديان — كما ذكرنا أولا — استعانت به فى التبشير بمبادئها ، والفلسفة اتخذته وسيلة أساسية لنشر آرائها ، والثورات السياسية والاجتماعية تذرعت به فى إذاعة أهدافها وبرامجها .

فالأدب إذن أيها السادة والسيدات قوة هائلة ، عظيمة الأثر فى المجتمع ، وكثيرا ما سيطر الأدب على بلاطات الملوك ودواوين الوزراء ، وكان هو الموجه للسياسة العليا والمنظم لحياة الدولة ، وكثيرا ما أقام الحروب وأنهاها ، وبعث الفتن وأماها .

أليست حرب العرب لكسرى قد نشبت تلبية لاستغاثة فتاة حاول الفرس العبث بها ، فنارت النخوة فى القبائل ، وأجمعت أمرها لتنفذ عرض فتاة وشرف أمة ، وكان لها ما أرادت .

ليس " شبل " غلام السفاح قد هيجه بالبيت المشهور .

فضع النطع وارفع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأعمل سيفه فى فلول الأمويين ، ووضع أساس دولة بنى العباس التى ملأت الدنيا علما وأدبا وحضارة ، وقويت فى ظلها شوكة الاسلام .

وقبل ذلك . ألم تكن كلمة سن الخنساء شيعت بها أولادها السبعة الذين قتلوا فى حروبهم إلى جانب سعد بن أبى وقاص ، سببا فى إثارة المجتمع العربى كله ؟ فقد علمت الأمهات أن الخنساء حين نعى إليها فلذات أجباده لم توجه همها إلى الحزن عليهم وأطمخ الخلدن من أجلهم ، بل وجهت همها إلى المعركة هل ربحها المسلمون ، فلهذا عرفت أنهم ربحوها حمدت الله على أن جعل أولادها فداء لدين الله . تسامع الناس بهذا فكانت الأم تدفع وحيدها إلى الميدان ولا تبالى أن يقتل فى سبيل الله .

وتلك المعركة الضروس التى استمر أوارها بين على كرم الله وجهه ومعاوية رضى الله عنه ، ألم تكن الخطب البليغة ، والبيان الحماسى من أهم أسلحتها ، بجانب السيوف والدروع والرماح ؟ . أجل — فكل هذا حق وأيم الله . .

تسابت العصور العربية ، وتعاقبت الدول ، ولكل أمير شاعره أو شعراؤه ، ولكل ديوان كاتبه أو كتابه ، ولكل عظيم حاشيته من أهل الأدب والفن والطرب ، ولأولئك جميعا أثرهم فى السادة الذين هم خلفائهم ، وطوؤاء وهؤلاء أثرهم فى المجتمع الذى فيه يعيشون .

## الأدب والنهضة الوطنية والاجتماعية

ولقد كان أدبنا العربي بعض الوسائل أو أهم الوسائل ، التي استعملناها في إدراك أمانيتنا الوطنية ، يوم ثرنا ثورتنا التاريخية الكبرى ، بقيادة زعيمنا الراحل ( سعد زغلول ) ، ومن بعده خليفته مصطفى الأيمن . ونهضنا نطالب بحقوقنا ونسترد حريتنا الضائعة ، ونجاهد للوصول إلى المنزلة الكريمة التي أعدها التاريخ لوطننا العزيز .

ففي هذه الثورة ، لم تكن الأمة العزلاء الناهضة تملك إلا سلاح الحق والإيمان ، لتحارب الحديد والنار ، وتناضل بقوة المعنوية ، تلك القوى الضخمة المادية .

بل إنها لم تكن تملك إلا سلاح الأدب ، حاربت به أولاضغفاء النفوس فطردتهم من الصفوف ، ثم عادت فصرخت به صرختها المدوية التي أيقظت النائمين وحركت الجامدين . وزادت المؤمنين إيماناً ، ثم كرت به كرتها الموقفة على القيود فحطمتها ، وعلى الأغلال فأزاحتها ، ودلى المستعمرين فسوت معهم الأمر ، وصححت الوضع ، وأدنت منها الآمال . . .

إذن فالثورة الوطنية التي كالت بالظفر ، والتي كتب لها الفوز ، مدينة للأدب المصري بما أنارته خطبه من حماسة ، ومقالاته من غيرة ، وبما حققته فنونه المنظومة والمشورة ، من قوة إقناع . وبراعة توجيه ، وصادق تعبير عن أمانى الحرية والاستقلال .

وإذن فهنضتنا الحديثه . . سياسية كانت أو اجتماعية . . كان الأدب سلاح قادتها ووسيلة أمتها وهداتها . .

وهل كان غير الأدب في أنواعه المختلفة وألوانه المتباينة عماد النهضة وقوام الإصلاح وملهب الشعور ، والمصدر لكل ما تفيض به قلوبنا من تطلع إلى المثل العليا ، وتحفز للغايات النبيلة وتعلق بالأهداف السامية المجيدة في هذه الحياة . .

وهل كان غير الأدب في أشعته الوضاءة الوهاجة . . من صحافة وقصص وشعر وتمثيل وغير ذلك أول خادم للجمع ؟ .

ومن منا يستطيع أن ينكر على الصحافة خدمتها للجمع وتنويرها للرأى العام فيه وتوجيهها إياه إلى تسديد الرأى كلما حزب الأمر وأعضل المشكل .

أو ينكر عليها قوتها وعظمتها عندما تتصدى تحارب الظلم حتى تهده وتناوى العسف حتى تدكه . . وتناهض العيب أو التفريط حتى تقضى عليه . .

أجل وعندما تبرى تنود عن الحق المهضوم حتى تغلبه . . وتدعو إلى الواجب البديل حتى تستأديه ، فتثير النفوس وتدفعها دفعا إليه .

وهل ينكر منكر على التمثيل خدمته وروسته ، وما يقدم للقلوب من رى وللاأرواح من غذاء ، وما يلتقن من معان للبصولة والمجد وأمشلة لاسمو والكمال . . في طلاوة وحلاوة ، حبيبة إلى القلب أثيرد عند الفؤاد .

ثم هل ينكر منكر على القصص أثره وسخره . . ودوره الذى يعبه في توجيه الأفكار . . وتقويم النفوس . . وتهذيب المجتمع . . وبث أرقى المذاهب وصقل أسمى التقاليد .  
وأخيرا هل ينكر منكر على الأناشيد والقصائد والأغاريد أنها تثيره من الاحساس وتوقظ هاجع المشاعر إلى أسمى المعانى وأرقى الغايات ؟

### حضرات السادة

لو سئلت عن استشهاد ومثال . . للسهم الممتنع لأحلت سائلى لفوره إلى ( الأدب فى خدمة المجتمع ) فلتقد أعفيت نفسى من ذكر أمثلة أو سرد استشهادات . . إيمانا منى بأن الأمر من الصدق والحق ومن الوضوح والحلاء بحيث لا يحتاج إلى أى دليل أو استشهاد وإيمانا آخر بأنى لو نحت هذا النحو ما وسعنى المقال ولا المقام .

أعفيت نفسى من كل هذا . ومع ذلك أجدنى مهما سردت أو ذكرت لا أبلغ من الموضوع إلا أطرافه ولا أصل منه إلا إلى جوانبه . .

ولكن علام هذا العناء ، وفيه هذا الإجهاد لكم ولى ، والأمر يبدو غير كل هذا ؟ أجل فما أردتم من محاضرة اليوم أن أف ببنكم أثبت أن الأدب فى خدمة المجتمع ، فذلك ما لا يحمله إنسان أو يختلف فيه اثنان . . .

إنما أردتموها يا شباب الآداب بيعة منكم للآداب . . كما أرادها قبلكم شباب العلوم بيعة للعلوم . عز عليكم أن تنفرد كلية العلوم بهذه المبايعة ، وأن تكون وعلمها فى خدمة المجتمع وحدها . فهرعتم لم يستقر لكم قرار . ولم يبدأ لكم بال . حتى جتتمونى تلعنون إلى أنكم وأدبكم فى خدمة المجتمع ، وإنها لبيعة صادقة وعهد وميثاق ، بينكم وبينى كوزير لشؤون المجتمع . فما أسعدنى ببيعتكم الذى بايعتم به ، وما أهنأ مصر بكم وبما قدمتم من عهد وميثاق .  
أى أشبال الأدب وأسوده . . .

ليست لى ريشتم فاصور لكم مجتمعتكم أدق تصوير ، وأحلله لكم أصدق تحليل . . وليست لى قوة بلاغتم أو روعة بيانكم فأرهف منكم الاحساس وأستثير فيكم الحماس . . فكل ذلك أتم أهله ومصدره .

فليس على إذن كوزير للشؤون الاجتماعية ، إلا أن أرحب بكم أبجل ترحيب . وأسلم إليكم مكانكم مع المجتمع لتحرسوه ، ونصيبكم من بنائه لتقيموه .

ها هو ذا المجتمع يا أشبال الأدب يئن من نالوته الخيف - الجهل والفقر والمرض - وما جرت وتجر ثلاثتها عليه من آثار وأخطار .

فهلا حبرتم أقلامكم ، وأعلمتم بيانكم ، لتردوا جهله علما ونورا . . وفقره يسرا ورخاء . .  
ومرضه قوة وفتوة ؟

ها هو ذا يشكو الفقر من تضامن الوجدان ، والجدب رغم تجاوب الاحساس ، ويفشاه  
ظلم اجتماعي . . اقتصادي . . فهلا أذكيتم تضامن الشعور والوجدان ، وجلوتم القلوب  
والنفوس ؟ هيا اجملوه كالبيان المرصوص ، أو كالجسنان اشتكى منه عضو تداعى له سائر  
الأعضاء بالسهر والحمل .

يا شباب الأدب وأشباهه . .

هيا بشركم وثركم وخطابكم وقصصكم . . هيا اهزجوا له بجميعها أهازيج المجد وانشدوا  
له بها أناشيد الخلود .

هيا انشروا في جوانبه الجمال والنور . والنوق والفن والكمال .

هيا أشيعوا فيه أمجد التقاليد وأسمى المثل وأشرف الغايات .

هيا بتوا فيه قويم الأخلاق ، ونيل العادات وكريم الصفات ، وطاربوا فيه ضعف  
الخلق ، ومرض الضمير ومتجر الرأي ، وزائف القول .

وفي كلمة . . . هيا . . . هيا . . . هذبوه وتوروه وجملوه .

هيا يا شباب الأدب عاصرة قلوبكم بالايمان ، قوية نفوسكم بالأمل ، كبيرة هممكم بالرجاء

هيا مترؤدين بزاد المجاهدين ، متسمين بسمة المكافحين ، مترين بإزار البنائين المشيدين  
شيدوا انا المجتمع راقيا ، وأودعوه من سمو خيالكم سما ، ومن جمال تصويركم جمالا .

فالأدب في خدمة المجتمع . بيعة صادقة ، وعهد وميثاق .

خافظوا على بيعكم الذي بايعتم به ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مشئولا .

سدد الله خطاكم ، ووقفكم وهذا كم في ظل حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب  
”فاروق الأول“ حفظه الله وأبقاه .

والسلام عليكم ورحمة الله ما

فؤاد سراج الدين